1988.926-0001-2

جريمة قتل مقنَّع

الى عدنان حلواني
في ذكرى اختطافه السادسة

بقلم: زهير هواري

كان الجزار الفاشي يتمنى لو باستطاعته ان يطعن بسكينه وجه الشمس. يكسر بنصله استدارتها، يهشم زجاجها المشع، يدمر اتساقها، يُجزّئها ذرة ذرة، يمرغ ضوءها في وحل جموحه، ممتشقاً شبقه للقتل، مخترقاً بحربته المسمومة الشوارع والأحياء وما عليها. كانت يده تتطاول وتتطاول، لكنها لا تصل، تترك في فضاء مدينتنا ندوباً دموية على الصفحة الرقيقة. كلما كانت خناجره تنثلم كان يشحذها على رقابنا، يطلق نصالها طعناً لايرحم في صدورنا والأحشاء. خناجره لا تملك القدرة على التفريق بين مذاق لحم المرأة والطفل، وطعم دم الرجل أو الشيخ. قال احد الكتائبيين لمجلة اجنبية ان قلبه شعر بالألم عندما طعن حصاناً في احد ازقة صبرا أو شاتيلا. شعر بالألم، عندما كان الحصان يئن مطلقاً الحياة زفيراً متلاحقاً، وهو مطعون حتى الموت.

للحيوانات الألم، ولنا الحقد المندفع سيولاً يستبيح منا كل ما هو مضيء من جسد وحلم.

* * *

اقتل... اقتل حتى يحني لك الناس الرقاب والحلم. حتى تنقصف اعناق الورود، ويتشظى الشذا، ويموت نحل الرحيق، وتنهرس زهور الأقحوان، وتذبل شقائق الدم. هذا ما كان يقوله الفاشي، وهو يجوب الشوارع، يقتل من يشاء. لكن للعالم عينا ترى. لم يعد من الممكن ان يوضع «عبيد الأرض» وبقايا الأقنان، والعامة على اعواد مرصوفة على مداخل المدن. لم يعد ممكناً أن تمارس السلطة الفاشية شبقها للدم بحرية مطلقة، وبات الكلس الذي أُلقي على ضحايا المجزرة عاجزاً عن منع رائحة المذبحة وهي تصل أقاصي الأرض. كان المذيعون يقفون مذهولين قبل وضع الشريط في أجهزة البث. لذلك لم يكن امامهم سوى دعوة من هم «ضعاف القلوب»، امام الدم إلا أن يذهبوا نحو غرف النوم، يتدثرون بالأغطية، ويطلقون خيالاتهم صوراً سريالية ترسم الموت عارياً من قشور الحضارة الزائفة. كانوا يشاهدون الكوابيس، كوابيس الموت تطل بألف ألف رأس، سيوفاً ومتاريس، حربات قديمة وأسلحة حديثة، مقاتلين يرتدون جلود الحيوانات وآخرين يلبسون اليونفورم العصري المرقط. محاربين يصرخون بأعلى أصواتهم داعين الى الدم، وآخرين يستعملون أجهزة اللاسلكي... وكانت الجثث تملأ عيون المشاهدين بالرعب الأسود.

* * *

كان على الفاشي أن يتعلم الدرس. حاول أولاً أن يقتل دون اطلاق الرصاص. استعمل السكاكين، السواطير، الحربات. كان عليه أن يتجنب اطلاق الرصاص، حتى لا يجذب صوته الاسماع الى الاصغاء. لكن هذا لم يحدث. حصل العكس تماماً. لم يخفف القتل الصامت من هول «الهولوكست»، الجديد. وكان الاسرائيلي حاضراً يكتب تاريخه كقاتل هذه المرة ايضاً. كان على الفاشي ان يتعلم الدرس. لا رصاص، لا سكاكين، لا مذابح مدوية الصوت والصدى. اذن لتستبح المدينة بكل من فيها. ما دام هذا الفاشي قد بات يمتلك مشروعية القتل بوصفه سلطة تبني نفسها مدماكاً مدماكاً وصولاً الى مشروع السيطرة الكاملة. كان من الاستحالة بمكان ان تستمر عملية الغاء وجود الآخر بالقتل.

لذلك استبدلت اسلحة الحرب المعلنة بالحرب السرية: وجهه القاسي بالقناع الوظيفي، شارة الميليشيا بالهوية النظامية، سيارة الجيب العسكرية، بالمركبة المدنية. الغارة الشاملة تحت وهج كشافات القوات الاسرائيلية، بالمداهمة العلنية. القتل العاري، بالاخفاء المقنع. كانت الفاشية وهي تعمل على بناء سلطتها ثانية، تحاول ان تستعيد حلمها القتيل في انقاض مبنى بالأشرفية. لينهض الأخ الأكبر مكان الأصغر، ولتتواصل عملية القتل المركبة، قتل الآخر لإثبات الذات، ولكن بأشكال أقل ضجيجاً.

* * *

للمفقودين قمر الذاكرة، منديل النظرة الأخيرة. لهفة الذهاب وغصة السؤال والوجع الذي لا ينتهي. للمخطوفين صليل الألم والصور القديمة، ومعالم الوجه، وحضور اللحظات ودفء القلب. لهؤلاء الذين نعلم ولا نعلم عنهم شيئاً شمس الصدر وضفاف الأمل. للذين يرحلون على الاقامة الدائمة. لهم الاصرار على الحلم الأزرق الباقي ابداً رغم صعوبة المسار الذي يراه البعض مستحيلاً ونراه أمامنا يوماً.